تطور التعليم
في الازهر

لفضيلة الاستاذ الاكبر
محمد مصطفى المراغي

١ — شعر المهيمنون على التعليم في الازهر منذ وضع القانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ بأن الازهر أخذ يضيع أهم خصائصه ومميزات تعليمه ولم تخل تقارير لجان الامتحان ولا تقارير المفتشين في سنة من السنوات من الشكوى من اعتماد التلاميذ على الاستظهار ومن ضعف ملكاتهم العلمية وقد توالت على هذا القانون تعديلات آخرها التعديل الذي ادخل عليه بالقانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ وهو أظهر تعديل طرأ عليه ففي هذا القانون قسم التعليم العالي الى ثلاث كليات واحدة لعلوم اصول الدين وثانية لعلوم الشريعة وثالثة لعلوم اللغة العربية ووجد تخصص سمي تخصص المادة وآخر سمي تخصص المهنة. وقد كان الغرض من هذا تفرغ كل طائفة من التلاميذ في التعليم العالي والتخصص لطائفة من المواد الكثيرة التي كانت تدرس مجتمعة حتى يتيسر اتقان الدرس والفهم واتقان التحصيل ، ومع هذا ظلت الشكوى قائمة وظهر ان الداء الذي يجب ان يحسم ويستأصل هو ضعف التلاميذ في القسم الثانوي بسبب كثرة المواد وبسبب طول المناهج في بعض المواد التي لا يحتاج الطالب في الازهر الى طول المنهاج فيها فهذه الكثرة وهذا الطول لم يدعا وقتاً لهضم الدروس وتمثلها ولم يدعا وقتاً لطول التفكير والبحث والجدل وتسمية ملكات العلوم والاستنباط

٢ — وقد يعيننا على تصوير الحقيقة في هذا الموضوع وعلى الحكم بأن القانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ كان ضرره اكبر من نفعه ان نرجع الى الماضي قليلاً ونستطلع ما كان عليه الازهر قبل القانون الصادر بتاريخ ٢٠ محرم سنة ١٣١٤ (اول يوليو سنة ١٨٩٦) كانت العلوم التي تدرس في الازهر ويمتحن الطلبة فيها لنيل شهادة العالمية هي : — الاصول — الفقه — التوحيد — الحديث — التفسير — النحو — الصرف — المعاني — البيان — البديع — المنطق

وكان الطلبة يقضون في تحصيلها مدداً طويلة أقلها خمس عشرة سنة ولا حدّ لأكثرها ومع أنها كانت تدرس في كتب سقيمة من المختصرات التي لا تفهم إلا بشروح وحواشي والتي تحتاج

الى جهد شاق في حل ألفاظها وبيان وجه دلالتها وتصحيح وجوه هذه الدلالة فان الطلبة كانوا يقدرون على الاستقلال بدراسة الكتب ويقدرون على فهمها وكانت تنمو فيهم ملكات البحث والجدل ، ثم أنهم على الجملة كانوا بعيدين عن الاساليب العربية في الكتابة والخطابة بعيدين عن تذوق أسرارها غير متصلين بأسرار الدين اتصالاً وثيقاً فإن دراسة الفقه كانت دراسة جافة ودراسة التفسير والحديث كانت دراسة ضيقة ودراسة علوم البلاغة كانت قاصرة على كتب عفرتها الفلسفة وبعدت في أساليبها عن الأساليب العربية ، وأكثر من هذا أنهم كانوا بعيدين كل البعد عن المعارف الضرورية التي لا يسع أحداً جهلها في هذا العصر مثل الجغرافيا والتاريخ ومبادىء الهندسة والحساب ومبادىء الطبيعة والكيمياء

والازهر كما هو معلوم قبلة أنظار المسلمين في العالم يفد اليه الناس من مشارق الأرض ومغاربها واحدٌ يدوي في الآفاق والحكومة في حاجة اليه لأنه الينبوع الذي يؤخذ منه القضاة والمفتون

٣ — كل هذا كان سبباً في حرص الغيورين من رجال الأمة ورجال الحكومة على تلمس وجوه الاصلاح ولم يكن من اليسور أن يكون إصلاح الأزهر سهلاً لاعتبارات تقليدية تاريخية ولم يكن من الجائز أن يسلك في إصلاحه ما يسلك في تنظيم المدارس المدنية ، بل كان يجب أن يتناوله الاصلاح برفق وأن يكون باضافة القدر الضروري من المعارف وباصلاح طريقة التعليم وباختيار الكتب وبتوجيه هذه القوى الجبّارة الى جوهر العلم وأسرار الدين وأسرار العربية

وهذا الذي أشرت اليه هو الذي لاحظهُ واضعو قانون سنة ١٨٩٦ فضمنوه من وجوه الاصلاح ما رأوه كفيلاً بأنهاض الازهر وكان من حسن الحظ إذ ذاك أن الذي قام على تنفيذ هذا القانون مجلس إدارة يضم طائفة من العلماء خلصت نيتهم وتوافرت لديهم وسائل التنفيذ وهم المشايخ حسونه النواوي، محمد عبده ، سليم البشري، عبد الكريم سلمان ، سليمان العبد . أسبغ الله عليهم واسع رحمته ورضوانه

أضاف هذا القانون مواد جديدة هي الأخلاق ومصطلح الحديث والحساب والجبر والعروض والقافية وجعل التاريخ الاسلامي والانشاء ومتن اللغة ومبادىء الهندسة وتقويم البلدان مواد يفضل حصلها غيره ويقدم عليه ، وفك التقيد بكتب دون اخرى وحرّم قراءة الحواشي في السنوات الاربع الأولى وحرّم التقارير التي على الحواشي وجعل من اختصاص مجلس الادارة أن يعدل في مواد التعليم طبقاً لما يراه من المصلحة

سار الأزهر على هذا النظام عشر سنوات سيراً مشتداً متزناً لم تطغ فيه المواد الجديدة على المواد القديمة لأنها أخذت بمقدار يناسب حال الأزهر ونشطت دراسة العلوم الدينية والعربية بما كان يعطى للطلاب من المكافآت السنوية وبما كان ينشر فيهم من أفكار المرحوم الشيخ محمد عبده في دروسه ومجتمعاته وأفرط عقد النظام بخروج الشيخ عبده من مجلس الادارة ثم بوفاته سنة ١٩٠٥ رضي الله عنهُ

٤ — حدث بعد ذلك أحداث وقتن وعولت الحكومة على إنشاء مدرسة للقضاء فصدر بها قانون في سنة ١٩٠٧ وشعر الأزهريون بأن الحكومة أصبحت في غنى عنهم لأن لها مدرسة لتخريج معلمي العربية في مدارسها ومعاهدها ومدرسة لتخريج القضاء وخاف القائمون على الأزهر من تقلص شأنه ومن عدم إقبال الناس عليه حيث لم يبق بعد ذلك للعلماء الا وظائف الإمامة والخطابة في المساجد ولم يبق طلاب العلوم الدينية على عهدهم الاول يطلبون العلم للعلم وابتغاء رضوان الله بل حدث فيهم نزعات التمتع بالحياة الدنيا وأصبحوا لا يقنعون بالرزق القليل الذي كان يجري عليهم من ريع الاوقاف المحبسة ففكروا وفكر الناس معهم في إعادة تنظيم الازهر على مثال مدرسة القضاء ومدرسة دار العلوم بل على مثال يوجد للدراسة مواد أكثر ومناهج أطول وانتهى الامر بهم الى وضع القانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ وكثر الاقبال على الازهر ووجدت معاهد أخرى في عواصم المديريات وبعض المحافظات جرت على نهجه وسرت عليها نظمه حتى صار عدد الطلاب في سنة ١٩١٧ أكثر من عشرين ألفاً

٥ — كثر عدد الطلاب وكثرت المعاهد وتنافست في نتائج الامتحان وكل معهد يحاول أن يسبق غيره من المعاهد لا في اتقان الدراسة ولكن في إعداد الناجحين ولم يكن من اليسور أن يكون كل المعلمين لهذه الاعداد الكثيرة وعلى هذه النظم الجديدة من الكفاية بحيث تكون النتائج مرضية واضطر الطلاب ليفوزوا بالنجاح في الامتحان التحريري الى ان يعتمدوا على الحفظ والاستظهار واستبانت المعاهد بالامتحان الشفوي فتغيرت المعالم في الازهر وفقد الطلاب أهم مميزاتهم وخصائصهم التي أسلفناها صدر البحث

٦ — ونحن إذ نحاول اصلاح الازهر نريد ان نوجد طالباً يفهم مسائل العلوم فهماً صحيحاً ويفهم أغراضها وصلتها بأدلتها وصلتها بعضها ببعض ويستطيع التطبيق على الجزئيات ويستطيع الاستنباط والتدليل ويستطيع فهم الكتب القديمة التي ألفت في العصور المختلفة في جميع الفنون الاسلامية

واني على بعض لا أكثر الكتب التي ألفت في العصور المتأخرة أكره من الطلاب أن يعجزوا عن فهمها لان فيها خيراً كثيراً ودقائق لا يصح الجهل بها لذلك أحب ان يستطيع الطلاب فهمها ويقدروا على حلها . نعم اني لا أحب أن تدرس العلوم على هذه الكتب بل أحب ان توجد كتب في جميع الفنون حديثة على أسلوب عربي صحيح مناسب لأذواق الاجيال الحاضرة تهذب فيها المسائل على أحسن ما وصل اليه التحقيق العلمي ، وأن تحيا الكتب القديمة الجيدة في الاسلوب والوضع فهذا الميراث العظيم يجب ان يؤخذ كله سلسلة متصلة الحلقات

هذا الذي نحاوله بالتجديد يجب على ما أرى أن يضعه الناس أمامهم وأن يجدّوا للوصول اليه وهو غاية يذل في جانبها كل جهد ويرخص في سبيلها كل ما يبذل للوصول اليها

٧ — ولقد كان أسلافنا أشد الناس عناية بالعلم فلم يمض الزمن القليل حتى أخذوا علم اليونان وأدب الفرس وحكمة الهند واستعانوا بذلك كله في تفسير القرآن وفي وضع علم الكلام على الاسس التي نراها في مثل المواقف والمقاصد واستعانوا به في تنظيم مسائل العلوم جميعها فلم يخل علم من اثر الفلسفة والمنطق ولقد كانت لهم محاولات جديرة بالاعجاب في التوفيق بين الدين ونظريات الفلسفة وقد أخذ العلم يسير في هذا العصر سيرة جديدة وتغيرت نظريات الفلسفة وجدّت نظريات أخرى وكان من شأن ذلك كله ان توجه حملة على الاديان جملة وعلى الاسلام خاصة وصار من الواجب الحتم على ابناء المسلمين أن يحيطوا علماً بكل ما يرجه الى الاديان عامة والى الاسلام خاصة من مطاعن وان يردوا تلك المطاعن ويذودوا عن عقيدتهم بأدلة ناصعة وأسلوب مقنع ممتع ليقوا المتعلمين تعليماً مدنيًّا في حظيرة الاسلام وليضموا اليه افراداً وشعوباً من الامم التي لها قدم راسخ في العلم

وهذا لا يتم لهم على ما ينبغي الاّ بالاتصال بغيرهم اتصالاً علميًّا وبتعرف اللغات الحية التي يكثر فيها الانتاج العلمي والتي يتناول بها العلماء مسائل الاسلام ومسائل اللغة العربية لذلك وجب أن يكون لاهل الازهر نصيب من هذه اللغات وأن تدرس تلك اللغات لأصله ، وهناك فائدة أخرى لتعلم اللغات وهي انها تساعد على معرفة طريقة وضع الكتب وعلى معرفة الاسلوب الحديث في التأليف والتفكير وطريقة عرض المسائل على انظار المتعلمين

٨ — قلنا في الفقرة (٢) ان ضرر القانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ أكبر من نفعه والآن نقول انهُ لم يخل من الفائدة لأن تعلم التاريخ والجغرافيا والرياضة ومبادىء الطبيعة والكيمياء قرّب تلاميذ الازهر من تلاميذ المعاهد الاخرى وغير عقليهم ووسع أفقهم وجعلهم ينظرون الى غيرهم نظرة غير النظرة الاولى أيام كان الازهري لا يرى أحداً أهلاً للعلم غيره ولا يرى احداً يصح ان يطلق عليه لقب عالم غيره ، وادخال المطالعة والمحفوظات والانشاء أوجد من اهل الازهر عدداً كبيراً من الكتاب والشعراء ومكن لهم من القدرة على الخطابة والوعظ ، فمن الرقي العام في المجتمع المصري وفي الصحافة وفي الكتب المؤلفة حديثاً وكثرة المطبوعات القديمة النفيسة له احسن الاثر فيما نراه من اثر لصلاحهم لكن مما لا شبهة فيه ان الدراسة لها الفضل الاكبر

٩ — ولا ندّعي أن اصلاح القانون وتنفيذ هذا المشروع يحقق الاغراض التي نرمي اليها ويوجد انطالب الازهري الذي ينتبه بل أن الذي يحقق هذه الاغراض الرغبة الصادقة في التعلم والعزيمة القوية على احتمال الجهد والصبر لقطع مراحل التعليم في هدوء وطمأنينة والايمان بأن العلم عزيز يقتنى وحلية للنفس ومتعة للعقل وجمال لمن يتصف به . والحرص على الافادة والتعليم والايمان بأن ذلك فرض للعلم واجب لله ولرسوله وللمؤمنين والشعور بلذة الارتقاق من العلم وأن الارتقاق سنة يزيد في الثروة ويشيع بهم النفس التواقة الى الغنى وأن هذه الثروة خير مما هو مخزون في خزائن الاغنياء